المحاضرة الثامنة: نظريات معاصرة لعلم اجتماع الفن

- **أهداف المحاضرة 08**
- **الكشف عن المقاربات النظرية المعاصرة لعلم اجتماع الفن**
- **تحديد أهم نظريات المعاصرة لعلم اجتماع الفن**

- **نظرية فيكو (إيطالي 1668 – 1744 م):**

تعتبر نظرية –فيكو – الفن ظاهرة اجتماعية ينطبق عليه ما ينطبق على المجتمع بشكل عام. لذلك فالفن يخضع لنفس القوانين التي يخضع لها المجتمع كله ففي نظره أن المجتمع البشري وكذلك الفن مروا بثلاث مراحل هي:

الأولى: يسميها مرحلة الآلهة حيث ساد الرعب والخوف مما دفع الناس إلى تصور الأرواح الخفية ولذلك تشبعت عقلية الإنسان وكذلك الفن بروح الخرافة وأصبح فنا لاهوتيا أسطوريا في نزعته،

المرحلة الثانية: يسميها بمرحلة الأبطال حيث كان الفن هو الوسيلة لتمجيد الأبطال وأعمال السادة الأحرار وهذا ما نجده في الفن اليوناني (هوميروس) و(الفن الروماني).

المرحلة الثالثة، يسميها بمرحلة الحرية تسود الحقوق المدنية والسياسية، وتتقدم الفنون في هذا العهد ويصبح الفن هو وسيلة التعبير عن الحياة اليومية.

لكن هذه المرحلة لا تطول إذ يدب الصراع بين الأغنياء والفقراء فتسود الفوضى وتنتهي المراحل الثلاث لتبدأ دورة جديدة تمر بنفس المراحل السابقة.

- **نظرية أوكست كونت (1857 —1798 م):**

صاحب نظرية مراحل تطور الفكر الإنساني، اللاهوتي، الميتافيزيقي والوضعي، ففي حديثه عن طور (التقديس الأعمى) بوصفه أول طور لاهوتي، يذكر – كونت – أثره في الفنون الجميلة ولم يكن هذا الأثر جافا حيث لابد أن تروق للخيال عقيدة وهبت الحياة للكون كله.

وقد نشأت كل الفنون الجميلة في تلك الحقبة وكان الشرك وهو الطور الثاني للمرحلة اللاهوتية مواتيا كذلك للفنون وقد دفع الشرك الخيال، والعاطفة فوق العقل واستخدم الفنون ليترجم فلسفته الدينية جمهور الناس بشكل حسي، وكلما أدخل معبود جديد أضفت عليه الفنون بزة وهيئة وتاريخا فتلاءم مع وظيفة قاعدة الشرك، بتوفيره الظروف المواتية لتقدم الفن على السمو به إلى مكانة عالية.

أما التوحيد وهو الطور الثالث من المرحلة اللاهوتية فقد ارتفع بالفنون إلى مكانة أعلى، يقول كونت بأن ملاحم ومسرحيات – ملتن واريوستو وشكسبير وكورني وموليير إنما هي أعمال لا مثيل لها، والموسيقي التي لم يكن فيها تألف (هارموني) بل كانت مجرد ألحان بسيطة رتيبة وكان إدخال الهارمونية وتدوين العلامات الموسيقية والآلات مثل الأرغن من كذلك في التعبير المعنوي الرفيع كما هو الحال في صور – رافائيل–.

أما النحت فقد عانى من عدم الافتتان للأشكال البشرية أو عدم تعودنا عليه على حين بلغت العمارة درجة عالية من الكمال في بناء الكاتدرائية (كنيسة مسيحية).

ورأى كونت أن المجتمع في المرحلة الميتافيزيقية يمر بحالة عقلية حرجة سلبية غير مواتية للفن وكان إحياء الفن الكلاسيكي في القرن الخامس عشر حركة لازمة وقيم من بعضي الوجوه وخاصة لتساعد على تحطيم التفكير اللاهوتي ولكنها كانت انتكاسة من حيث أن الإفراط في الإعجاب بالقدامى أفسد ما بشر به القرن الرابع عشر ما أعطت العمارة إلى ما دون مستواها في العصر الوسيط.

ولكن الفن لقي فيما بعد تشجيعا منتظما وبخاصة من البابوات والملوك، الذين أثرهم أكثر نفعا وخيرا للفن من البروتستانية والرعاية الخاصة، ومنذ عهد قريب بات الفن بفضل التقدم الصناعي أكثر استقلالا عن هؤلاء وهؤلاء.

وحققت الموسيقى المسرحية تقدما حاسما في إيطاليا وألمانيا ومن ثم ساعدت على نشر الفن في الحياة الاجتماعية بصفة عامة.

وتعاني الفنون الآن من الأوضاع الانتقالية غير المستقرة فقد باتت تهيم بعيدا عن النظام دون وجهة عامة أو غاية اجتماعية، وإنها لترقب حافزا اجتماعيا وعقليا جديدا ولا ينتظر أن يكون هذا وليد الفلسفة التي هبطت إلى العدم أو إلى لا شيء (كما يقول كونت) بفضل عزلتها غير العقلانية ولكن حتى في غمرة الفوضى وعدم الاستقرار الفن في أوروبا الحديثة قد تمت أعمال خلاقة مثل روايات – سكوت – وربايشير شكل الأسلوب البطولي (القصة الطويلة) إلى نهج التجديد في الفن عامة.

ثم في المرحلة الوضعية حدد كونت – وظائف الفن أبرزها مساعدته في توجيه ديانة البشرية عن طريق مهرجانات عامة منظمة، وستكون البشرية ذاتها موضوع العبادة وبوجه خاص

أسمى منجزات الإنسان في الماضي والحاضر.

ولقد كان للفنون فضل في تنميق الديانات الإلهية في الماضي وإضفاء الجاذبية العاطفية عليها ولسوف تكون ديانة الفلسفة الوضعية في حاجة إلى الفنون بنفس القدر، فالفن هو العرض المثالي للحقيقة وهدفه أن يربي فينا حاسة إدراك (الكمال) وحينما يفسر العلم الحقيقة فإن الفن يضفي عليها جمالا وبهاء وكلاهما يتطور حيث تبدأ تأملاتهما بالأشياء البسيطة في العالم الخارجي ثم ترتفع تدريجيا إلى الحقائق المعقدة في الطبيعة البشرية.

إن الرسالة المميزة للفن هي أن ينشئ أسمى أنواع الأنماط يحلق ويرتفع، والتأمل فيها بمشاعرنا وأفكارنا إلى آفاق عالية ولابد أن يسمو الفن على الواقع حتى يحفزنا إلى إصلاحه، وأن الفن ليبدأ بالمحاكاة البسيطة ثم يتابع سيره نحو الامتثال نحو التعبير عن هذا الأخير وبالتعبير يستطيع الفنان مع ارتقاء الشكل والأسلوب أن ينقل فكره كاملا وبطريقة فعالة.

3- نظرية كارل ماركس (1883—1818م):

تؤكد نظرية ماركس على دور البيئة وبخاصة الاجتماعية الاقتصادية في تحديد الخصائص الأساسية في الفن، فالتغيرات في البيئة كما هو شأن الثورة التي تعيد توزيع الثروة والسلطة تجتاح إلى تبديل أشكال التعبير الثقافي جميعها.

إن طراز الفن ونوعيته في أي زمن لا ترجعان إلى أي إلهام خارق للطبيعة أو سمو عنصري فطري بل أن الأحوال الاجتماعية تستطيع أن تهيئ للفن موضوعاته واتجاهاته العامة إلا أن ثمة دوما مجالا فسيحا للتنوع الفردي.

فإن الأحوال الاجتماعية لا تحدد التفاصيل النوعية أو الأساليب الفردية في كل حقبة.

وليس في مقدور العوامل الاجتماعية الاقتصادية البحتة أن تتنبأ بالطرق المضبوطة التي تعالج أو تفسر بها العبقرية الموضوعات العامة ولكن الأحوال الاجتماعية قد تطلق العنان لقوة الخلق والإبداع وتلهمها والعكس صحيح، أي أنها قد تطلقها أو تقضي عليها.

وأكد ماركس على أن الفن الدايالكتكي البحت والدعائي الصارخ هو فن سقيم غير فعال، على حين أن الفن يجب أن ينطوي علي حيوية وخيال وشكل ومهارة وإعجاب بكثير من فناني العهود الماضية الذين خدموا أو أذعنوا النظام اجتماعي ظالم لأنهم وفقوا في التعبير عن ايديولوجية العصر، أو لأنهم عبروا عن المثل العليا الإنسانية الصالحة لكل أوان ومكان.

ويعتبر الماركسيون الحديثون أن الفن إلى جانب الدين والتعليم وسيلة من أقوى الوسائل لإلهام كل من الجماهير والصفوة المختارة، وللتأثير على عقولهم وعواطفهم حتى يتقبلوا ويقروا نظاما اجتماعيا بعينه أو يتمردوا عليه في وقت الثورة.

والماركسية أبعد ما تكون عن التلطف والمجاملة كما تفعل الرأسمالية غالبا على أنه مجرد تسلية أو معاملة الفن في شيء من زخرفة سطحية وهي لا تعتبر الفنان في ظل النظام الشيوعي شخصا شاذا أو مهرجا بيد أن الفنان لا يسمح له أن يكون مطلق الحرية في التعبير عن نفسه بصفة فردية؛ بل أنه لزام عليه في الدولة الشيوعية أن يعبر عن أحاسيس إيجابية تدعم المثل العليا للطبقة العاملة وللمجتمع الجديد اللاطبقي الذي يجب أن ينبثق كما ينبغي عليه أن يخضع لنظام الحزب ولحكومة العمال.

"جسر فيلنوف-لا-غارين" (1872) لوحة لـ ألفرد سيسلي